٢٥ عبد الرحمٰن بن هرمز
دائرة معارف متنقلة

المعرفة الموسوعية تتطلب من الراغب فى جمعها إمكانية خاصة، لعلها تعنى القدرة على جمع شتات العلوم المختلفة وتدوينها، ثم تبويبها وتقديمها للمتلقّى فى شكل ميسر يستطيع أن يتعامل معه، ويستفيد منه بدون مشقة أو عناء.

ولهذا يفترض فى الإنسان صاحب المعرفة الموسوعية أن يكون ملماً قدر الإمكان بأطراف المعارف، حتى يستطيع أن يُفاضل ويختار بينها، ليصل فى النهاية إلي الإفادة الصحيحة التى تفيد وتغنى طالب العلم.. كما يفترض فيه أيضاً التمتع بعقلية تحليلية تركيبية فى الوقت نفسه.. تستطيع أن تحلل الأشياء للخروج منها بنتائج يمكن ضمها إلى بعض للوصول إلى معنى مطلوب، وقبل كل شىء يفترض فيه أن يكون واسع الأفق، متعدد الثقافة.

وتاريخ الثقافة العربية الإسلامية غنى بأصحاب هذه المعارف الموسوعية الذين يمكن أن يقال عن الواحدْ منهم بأنه جامعة، أو دائرة معارف، أو موسوعة متحركة.. ومن هؤلاء الذين يتمتعون بالمعارف الموسوعية عبد الرحمٰن بن هرمز.

فلا يُذكر شيء عن علم النحو إلا ويذكر عبد الرحمٰن بن هرمز، على اعتبار أنه كان من الأوائل الذين يرجع الفضل إليهم فى وضع هذا العلم، الذى لا تزال العربية لغة وأدبا تعمل به.

ولا يُذكر ذكر «الفقه» إلا ويذكر عبد الرحمٰن بن هرمز أيضاً، على اعتبار أنه كان من المتفقهين فى هذا العلم، حيث صاحَبَ أبا هريرة، وأخذ عن ابن عباس، وسمع الحديث عن أبى سعيد الخدرى، كما تتلمذ عليه الإمام مالك إمام المدينة، وغيره من التابعين الذين كانوا فيما بعد أساساً لهذا العلم.

ولا يُذكر علم الأنساب إلا ويذكر اسم عبد الرحمٰن بن هرمز، على اعتبار أنه

كان من العلماء الثقات فى هذا العلم، وإليه ترجع كثير من المصادر لمعرفة أنساب العرب، كأساس للتاريخ لاغنى عنه.

هذا العالم الفقيه المؤرخ عبد الرحمـن بن هرمز الذى كُنِّىَ بأبى داود واشتهر بالأعرج القرشى، كان يرتبط بأسرة بنى هاشم فى قريش برابطة الولاء، حيث كان ولاؤه لربيعة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ، وكان من التابعين الأجلاء فى هذه السلسلة الذهبية التى بدأت بالنبى الكريم.

هذا التابعى الجليل وُلد بالمدينة المنورة، وعاش فيها وقتاً كانت المدينة فيه مجتمعاً الخاصة من علماء المسلمين.. من الصحابة والتابعين، وتابعى التابعين، فكانت فرصة له أن يتتلمذ كما يذكر ابن سعد فى طبقاته ـ على عدد كبير من الصحابه الذين أدركهم، فَسَمِعَ الحديثَ ورواه عن أبى هريرة، وأبى سعيد الخُدرى، وابن عباس، ومعاوية بن أبى سفيان، وغيرهم.

على أن السيوطى يذكر فى كتابه «حُسن المحاضرة» أن عبد الرحمـن بن هرمز صَاحَبَ أبا هريرة، وحفظ على يديه، وأخذ القراءة عنه زمناً طويلا، فكانت نتيجة هذه الشخصية المتعددة الجوانب فى العلوم.

ولهذا توسع في التفسير، وعرف الكثير من أحكام علم الحديث، إلي درجة أن الذهبي يقول في تاريخ الإسلام عن عبد الرحمن بن هرمز بأنه: «كان ثقة ثبتًا.. عالمًا». وهذا حكم للذهبى لا يمكن إغفاله أو تجاهله لدقة هذا المؤرخ وموضوعيته.

وكذلك توفر ابن هرمز علي دراسة القرآن وقراءته، فكان من الثقات المثبتين يلجأ إلى الناس للقراءة عليه لاطمئنانهم إلي حفظه وقراءته، وعلمه ومعرفته، ولهذا تكاد جميع المراجع التاريخية تُجمع في جديثها على وصف عبد الرحمن بن هرمز بالمقرئ المحدث، تقديراً له ولعلمه المتعدد الذي تفردَ به دون غيره فى زمانه.

وليس مصادفة أن يذكر بأنه من العلماء بالأنساب.. وكل المراجع تؤكد هذه الصفة ومنها مايقوله عنه الذهبى فى تاريخه: «وله خبرة بأنساب قريش» وأن يقول السيرافى عنه: «كان أعلم الناس بأنساب قريش» ما جعله المرجع الموثوق به فى هذا الجانب من العلوم.

وليست مصادفة أيضاً أن يُذكر اسمه حين يذكر علم النحو، فقد كان أول من وضع علوم اللغة العربية والنحو، وإن كانت بعض المراجع والروايات تنسب هذا

إلى أبى الأسود الدؤلى. . صحيح أن الأخير له الفضل فى منهجة هذا العلم، ولكن لا يمكن أن يُنسينا هذا فضل من بدأ، فحق الريادة محفوظ.

من هذه المراجع التى تنسب أسبقية وضع علم النحو لابن هرمز. . مارواه أبو لهب قائلا: «كان ابن هرمز هو أول من وضع للعربية قواعد» وفى كتاب أنباء الرواة: «ذكر أهل العلم أن ابن هرمز أول من وضع علم العربية». وذكر الزبيدى فى طبقات النحويين واللغويين قائلا عن أبى هرمز: «كان أول من وضعوا أبواباً، وأصَّلُوا أصولا للنحو واللغة، على ضوئها سار مَنْ جاء بعده».

وكان ابن هرمز الأب الأول للإمام مالك، كما يقول الإمام ذلك عن نفسه. ومما يذكر عن ابن هرمز أنه كان بين تلاميذه: جَمَّ التواضع، لا يغضب إذا نقده أحدهم، معللا ذلك بقوله لتلاميذه: «دخل فى بدنى ضعف، ولا آمَنُ أن يكون قد دخل فى عقلى قبل ذلك». وهذه أعظم رسالة للأستاذ، أن يُعد تلميذه، لاليواصل الطريق من بعده، ولكن لكى يعده ويطوره حتى يكون أفضل من الأستاذ.

وأما عن مجيئه إلى مصر واستقراره بالإسكندرية، فيذكر البلاذرى فى كتابه «فتوح البلدان»: أن عبد الرحمـن بن هرمز الأعرج القارىء خرج إلى الإسكندرية من المدينة المنورة مرابطاً، ومات بهذه المدينة ـ الإسكندرية ـ عام ١١٧ للهجرة».

وعن ذلك يقول أيضاً شمس الدين الذهبى فى كتابه تاريخ الإسلام: «انتقل ابن هرمز فى آخر أيام حياته إلى مصر، وتوفى غريباً بالإسكندرية سنة سبع عشر ومائة على الصحيح».

وإذا كانت هذه المراجع القديمة تؤكد وصول ابن هرمز إلى الإسكندرية ووفاته بها، فإن المراجع الحديثة ـ وفى مقدمتها كتاب الدكتور جمال الشيال «أعلام الإسكندرية»، وكتاب الدكتورة سعاد ماهر «مساجد مصر»، وهما من المصادر الحديثة الموثوق بها. يؤكدان أن ابن هرمز جاء الإسكندرية ومات فى المكان الذى يقام عليه مسجده برأس التين فى الإسكندرية.

ومن نافلة القول أن نذكر أن الكثيرين فى مصر قد استفادوا من علم ابن هرمز، حتى ولو كانت الفترة التى قضاها فيها قبل وفاته قصيرة، فمع قصرها كان علمه الواسع زاداً كافياً لكل طالب علم، سواء فى اللغة، أو الفقه، أو التاريخ.

* * *